أحمد الزين «الانسان»

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

في ٥ نوفمبر من العام الماضي روعت الدوائر الأدبية بفقد الشاعر العالم الراوية (أحمد الزين) . وما أظن أحداً من عشاق الأدب يجهل قيمته الأدبية ؛ ويكفي أن نقول إنه شارح روضابط ومصحح العقد الفريد ، وإمتاع الأسماع ، ونهاية الأرب وما إليها من أمهات الكتب بمفرده حيناً وبالاشتراك مع آخرين من الفضلاء أحياناً . كذلك يكفي أن نقول إنه كان في مقدمة « ارواة » في العصر الحديث ، بل ربما يكون قد انتهى بموته عهد « الرواية الأدبية » ...

ومع هذا فلست أريد في هذا الحديث أن أتكلم عن أدبه مرجئا ذلك لفرصة أخرى ؛ وإنما أريد أن أحاول تصوير بعض ملامح شخصيته الطريفة النادرة تصويراً سريعاً قبل أن تغمرها موجة النسيان ؛ فقد كان الفقيد نموذجاً فريداً في الحياة من طراز خاص وأسلوب خاص ومزاج خاص منقطع النظير .

الزين الظريف :

كان رحمه الله ظريفاً إلى أقصى حدود الظرف في كل حركاته وسكناته . وقد تجلى ذلك في معظم منظوماته حتى في المراثي ! ! ولا زلت أذكر يوم اشترك في تأبين شاعر النيل (حافظ إبراهيم) بقصيدة مطلعها :

أفي كل حين وقفة إثر ذاهب ... وصوغ دم أقضي به حق صاحب
أودع صحبي واحداً بعد واحد ... فأفقد قلبي جانباً بعد جانب

وبالرغم من هذه البداءة الحزينة التي لاءمت المناسبة الحزينة فإن ظرفه سرعان ما غلب عليه ونقله من الحزن الخالص إلى التهكم الذي أضحك الحاضرين على من سماهم « المجددين » فقال مقارناً شعر (حافظ) بشعرهم :

فذاك جلال الشعر لا شعر عصبة ... يطالعنا تجديدهم بالحواصب
دواوين حسن الطبع موه قبحها ... وهل يخدع النقاد نقش الخرائب
فيا ضيعة الأوراق في غير طائل ... وياطول ما تشكو رفوف المكاتب

كذلك في قصيدته في ذكرى (تيمور باشا) غلب عليه ظرفه فنقله أيضاً إلى التهكم على الناقلين عن اللغات الأجنبية بلا فهم لدقائقها ولا تمكن من لغتهم الأصيلة بأبيات جاء فيها :

من كل ألكن نابغ في عيه ... لهج بدعوى العلم وهو جهول
ويكاد يرشح عقله أمية ... حتى عليه يشكل التشكيل
إن رام شعراً لم يقم ميزانه ... وروية قيد عليه ثقيل
أو رام نثراً عيَّ دون مراده ... لفظ يطول وما به معقول
وإذا يترجم كان في تعقيده ... قير به المعنى البريء قتيل
لا تجحد الغربي سحر بيانه ... لكن سوء النقل عنه يحيل
سفراء سوء باعدت ما بيننا ... ولربما جلب الشقاء رسول

وكان طبيعياً أن يتجلى ظرفه أكثر من هذا في ألوان الشعر الأخرى حيث تتسع الفرصة للتهكم والسخرية .

أذكر أنه أراد ذات مساء أن يعتذر تليفونياً عن موعد هام واتفق أن ظل التليفون مشغولا بأحد الثقلاء أكثر من نصف ساعة ... إذ ذاك نظم قصيدته (المسرة) التي يقول له فيها :

فجدَّ في أذنها أو اهزل ... وقل ثناء بها وثليا ...
فلا تراها تسد أذنا ... مهما تطل لو قرأت كتبا
وكم ثقيل الحديث لولا ... جودها أو سمته سبا
تكاد مما يطيل فيها ... تفر ممن دعا ولبى
فيالها آلة تربي ... ذا الجهل بالذوق لو يربي

وذات ليلة دعاه أحد أصدقائه لسماع مغن وكان — كالمنتظر — سقيم الصوت ، فنظم بهذه المناسبة أبياته المشهورة التي يقول له فيها :

حمار لا يمل من النهيق ... يضيق به التجلد أي ضيق
مغن يجلب السلوى ويفني ... بقايا الشوق في قلب المشوق
مغن الأرتار لو أمست سياطا ... يصب بها على الجلد الصفيق
بطانته — حماك الله — رهط ... كأن صياحهم جرس الحريق
وكانت ليلة يا ليت أني ... دفعت بها لقطاع الطريق
جزى الله المغني كل خير ... عرفت به عدوي من صديقي

إلى غير ذلك من النوادر التي لا حصر لها .

الزين والمجتمع :

كان معظم الناس عنده « خلائق » لا يرتفعون عند حسن

ظنه . وكان يقسمهم إلى أقسام عجيبة فى دلالاتهـا : (بلاوى — حميد الصفات — علامة — سبع) !

فكل (باشكاتب) يجلس فى الأماكن العامة متحلياً بخاتم ثمين وساعة ذهبية وياقة منشاة و (يحشر) نفسه فى الأدب والفن دون دراية فهو « بلاوى » !

وكل (مخلوق) حلو الشمائل وديع الصوت سليم الطوية ولكن لا علاقة له بالأدب فهو « حميد الصفات » !

وكل أديب يعرف من أين تؤكل الكتف فينتسب — بالإلحاح — إلى جريدة كبيرة أو يتقرب — بالزلفى — إلى عظيم أو وزير ويصل من وراء ذلك إلى ما يبتغيه فهو «علامة» !

وكل أديب لا تعدو وظيفته أن تكون من الدرجة السادسة أو أقل فهو « سبع » !

وغرضه من ذلك وصف الأديب بالقدرة على البطش والقناعة مع هذا (بلقمة العيش) ..

ولا غرو فقد كان رحمه الله (سبعاً كبيراً) أى موظفاً باليومية لولا أن أسعفه قرار (الإنصاف) ثم (التنسيق) فرق فى آخر شهر من حياته إلى الدرجة الخامسة .

الزين والأدباء :

وكانت علاقته بمعظم المحدثين من الأدباء مضطربة لصراحته فى إبداء رأيه فى أدبهم ، بل إنه كان يكره أحياناً أن يستمع إلى شعرهم الذى كان يصفه بقوله :

عناوين كالألغاز حيرت النهى وما تحتها معنى يلذ لطالب
هم جردوا الشعر آذوا جماله بما ألصقوا فى حسنه من معايب
وكم دافعوا عن مـذهب العجز جهدهم
فما غـــلوا أسواء تلك المـــذاهب
وكم ملأوا بالزهر والنهر شعرهم بلا طيب مستاف ولا رى شارب
وكم يذكرون الأيك والطير صـــدحا
عليها فلم نسمع ســـوى صوت ناعب
وكم هاتف بالخلد منهم وشعره توفى سقطا قبل عقد العصائب
وشـاك أذاة الحب أطفأ جمره بشعر كبرد الثلج جم المثالب
فأقسم لو يبغى وصالا بشعره لجانبه من لم يكن بمجانب !!

أما علاقته بشيوخ الأدباء وكهولهم فكانت مشبعة بالصفاء والوفاء لمحض الودة من جهة وتقديراً لأدبهم من جهة أخرى . فمثلا كان يوقر حضرات أعضاء لجنة التأليف (وبخاصة أحمد أمين وأحمد زكى) ... وكان يعشق أسلوب (الزيات) ونظم فى هذا الصدد قصيدة بائية رائعة لم أحفظها مع الأسف ولم تنشرها (الرسالة) حتى لا تتهم بمحاباة رئيس تحريرها فيما أظن[1].

وكان يعجب بطه حسين إعجاباً بالغا بدا بعضه فى تقريظه لكتاب (مع أبى العلاء فى سجنه) بأبيات بارعة جاء فيها :

يا مؤنس المسجون فى سجنه وسلوة المحزون من حزنه
من كنت فى السجن له صاحبا فسجنه الجنـــة فى حسنه
أساء بالعـــالم ظنا ... ولو أدركته حسن من ظنه
أقسم لو خـــير فى عينه وفيك لاختارك عن عينه !!

إحساس الزين :

ولعلى لم أصادف كثيرين فى مثل دقة إحساسه . وبالرغم من تسامحه الملحوظة مع معارفه فقد كان ينفعل وأحياناً ينزوى فى بيته عن الناس جميعاً أياماً بل أسابيع إذا أحس بإهانة صغيرة من أحدهم . وربما كانت دقة إحساسه من أهم أسباب استمرار غبنه لخجله من الشكوى .

أذكر أنه طلب مقابلة أحد الوزراء يوماً ما ليرجوه فى انتشاله مما حاق به من غبن ، فتذكره الوزير كصديق قديم واحتفل به وأخذ يردد له بعض ما يتعلق بماضيهما فآثر (الزين) أن يقصر المقابلة على استعادة الذكريات دون أن يخدش إحساسه برجاء !

الزين والحب !

وعلى كثرة ما باح به لأخصائه من أسراره فإنه لم يبح لأحد بشىء عمن أحبها وإن كان دائم البوح بطهارة حبه وطهارتها . كانت هذه مصدر شعره الغزلى الجيد من نحو (عاود القلب حنينه) و (عللينا بالأمانى) و (ما غناء الراح) . الخ .

والغريب أنه كان كثيراً ما يرتاب فى حبها له ويخشى أن يكون منها ضربا من الشفقة والمواساة . و(الزين) إذا ارتاب تمادى

(١) أرجو الا يشطب هذه الفقرة رعاية لحق التاريخ